أهمية أصالة المصدر في معرفة الآخر

The Importance Of The Originality Of The Source In Knowing The Other

نادية الزورقاني *

قسم العقيدة والفكر الإسلامي والأديان، كلية العلوم الإسلامية

جامعة باشن العالمية للعلوم والفنون والتنمية PIUSAD بأمريكا.

dr.nadia.zorkani@gmail.com

تاريخ الاستلام: 18 / 02/ 2018 تاريخ القبـول: 15 /03/ 2018

ملخّص

للرجوع إلى المصادر الأصيلة التي تؤسس عقيدة الآخر أهمية بالغة، وتكمن في معرفة الحقيقة من أصولها دون وسائط، قصد تذليل العقبات وتمهيد السبل إلى قبول الاختلاف والاعتراف بالآخر المخالف قصد محاورته، فالاختلاف بشتى أنواعه باق إلى قيام الساعة، والحكم فيه يومئذ لله، والتعامل مع بقائه لا يكون بإلغائه ولا بتجاهله، بل بالتعرف إليه والتعامل معه، باعتباره سنة دائمة من سنن الله في الكون.

الكلمات المفتاحية: ابن حزم، التلمود، اليهود الانفتاح، أحمد شحلان.

Abstract

Returning to the original sources thatestablish the belief of the otherisextremely important, and it lies in knowing the truthfromitsoriginswithoutmeans, in order to overcome obstacles and pave the way to accepting the difference and recognizing the opposingother in order to debateit, so the difference of all kindswillremainuntil the Hourbegins, and the judgment of it on thatdayisGod, and dealingwithitssurvival It is not by cancelingit or ignoringit, but by getting to know it and dealingwithit, as itis a permanent Sunnah of God'sSunnah in the universe.

Keywords: Ibn Hazm, the Talmud, the Jews, the opening, Ahmad Shahlan**.**

* البريد الإلكتروني للمرسل:dr.nadia.zorkani@gmail.com

مقدمة

المعرفة مفهوم عام وشامل لكل ما يحيط بالإنسان من تصورات ومعتقدات ومفاهيم، وهي أكبر قيمة وميزة للإنسان، بها كرمه الله تعالى على سائر المخلوقات.

والمعرفة في اللغة ضد الإنكار، وتعود إلى معنى السكون والطمأنينة كما جاء في معجم مقاييس اللغة، من حيث إن ثبوت المعنى في النفس يقتضي سكونها إليه، بخلاف ما لم يثبت في النفس فإنها تنكره. ومن أنكر شيئا توحش منه ونبا عنه" [1]

وحاصل تعريف الفلاسفة للمعرفة، هو أنها الفعل العقلي الذي يتم به النفوذ إلى جوهر الموضوع لتفهم حقيقته.[2]

وقد تطورت في عصرنا الحاضر وسائل وأساليب اكتساب المعرفة، من منطلق حاجة الناس –على اختلافهم وتنوع أعراقهم – للانفتاح على علوم وأفكار ومناهج بعضهم البعض، وكذا من منطلق حث الخالق جل وعلا، على النظر وإعمال العقل و البحث عن الحقيقة.

دعوة للانفتاح على الآخر

إن الانفتاح على العالم فكريا وثقافيا فكرة قديمة تظهر بين الحين والآخر، وذلك راجع إما للجهل بالأنا وتعظيم الآخر، وإما للإعجاب بالنفس ومحاولة اكتشاف المجهول.

وقد بين حسن حنفي أهمية دراسة الآخر، وكون تلك المهمة تتمثل في فك عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر، بالقضاء على مركب العظمة لدى الآخر بتحويله من ذات دارسة إلى موضوع مدروس، والقضاء على مركب النقص لدى الأنا، بتحويله من موضوع مدروس إلى ذات دارسة[3]

وهي ذات الدعوة التي نادى بها الدكتور أحمد شحلان، خلال أشغال ندوة حول الاستشراق أقيمت سنة 1994م، في رحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط(بالتعاون مع مدرسة الملك فهد العليا للترجمة وجمعية الدراسات المشرقية في المغرب ومكتب تنسيق التعريب في العالم العربي)، وأيده عليها العديد من الباحثين في شتى أقطار العالم العربي والغربي.(ومنهم الدكتورقاسم السامرائي، والدكتور محمد فتحي، والدكتور محمد الشاهد، والدكتور إبراهيم عكاشة)

وما زالت الأصوات تتعالى بضرورة دراسة الآخر، بداية بتحديد مفهومه، وفقا لما ورد في النصوص الدينية، مرورا بدراسة الظواهر الاجتماعية لهذا الآخر، وفقا للموسوعات والمراجع أو من خلال ما تنشره الصحف والمجلات حول هذه الظواهر التي تضمنت السلوك، والفقر والأمية ونحو ذلك.

ووصولا إلى دراسة الجوانب الإيجابية للآخر، كالتنظيم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، أو حسن السلوك والتعامل، وذلك لتنقل الفائدة.

إن المعرفة اليوم لا تبنى من زيارة عاجلة أو قراءة عدة كتب عن الآخرأو المكوث في بلاده عدة سنوات للتحصيل العلمي، أو ما شابه، إنما لا يمكن تحقيق هذه المعرفة إلاّ من خلال دراسة الظواهر الاجتماعية والفكرية لمجتمع الآخر، والدرس العميق والبحث الجاد الرصين، في المراجع الأصيلة، ولا بد أن تكون الأهداف في ذلك واضحة.

كل هذا وذاك يؤول إلى محاولة فهم الآخر فهما عميقا ودقيقا، تصديقا لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.[4]

ففي الآية بيان لمقصد الخالق من جعل التنوع والمغاير ة سمة من سمات البشر، ذلك أن الاختلاف طريق للتعارف. فهذا الأخير هو الجسر الذي يربط بين الجماعات المتنوعة والمختلفة. ومن هنا فإن الدعوة القرآنية للتعارف، إنما هي دعوة للتعرف على هذه الاختلافات والاعتراف بها، وإدراك حتمية استمرارها، قصد تأسيس مجتمع إنساني واحد متناغم مرتكز على قاعدة معرفة المختلفين وتعارفهم.

ضرورة معرفة الآخر لمحاورته: أمثلة

ومن الأمثلة المدعمة لبيان أهمية معرفة الآخر لمحاورته.

1- تعريف النبي صلى الله عليه وسلم بمناقب النجاشي لصحابته المهاجرين إلى الحبشة

جاء في السيرة النبوية محاورة الصحابة- مهاجري الحبشة- للنجاشي، الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه ملك صالح عرف عنه أنه عالم لبيب عادل لا يظلم عنده أحد.فقد ورد في سيرة ابن هشام: «حدثنا محمد بن إسحاق المطلبي قال: فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء، [...]قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه...»[5]

فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم صحابته بمناقب هذا الملك وعرّفهم بخصاله، مما جعلهم مطمئنين مبادرين للقائه وطلب جواره، متكبدين عناء الهجرة ومشقة الترحال، حيث ألقى جعفر بن أبي طالب بين يدي هذا الملك خطابا مهيبا بليغا بثقة عالية وثبات شديد، كيف لا وقد عرف ذاته ثم عرف محاوره وتبين مداخل ومفاتيح شخصيته، على لسان نبي الرحمة الذي لا ينطق عن الهوى الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

وقد اقتدى به الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه في معرفة الآخر والتعريف حين وصف الروم بقوله: «إن فيهم لخص الا أربعا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشك هم كرّة بعد فرّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك»[6]

والحديث يعرض للجوانب الأخلاقية لشعوب الغرب من كونهم يتصفون بالحلم، والصبر عند المصيبة ليس كمن يستولي عليه الجزع ويطول، وهذا لا يمنع أن فيهم خصالا على النقيض من ذلك.

2- جهود الإمام ابن حزم الأندلسي في تحري الصحة بحثا ونقلا:

ولعل من بين الأعلام الذين أسسوا لضرورة معرفة الآخر المعرفة العميقة الدقيقة، الإمام ابن حزم الأندلسي العالم الموسوعي الفذ.

جاء في كتابه التقريب لحد المنطق: «واعلم أن [...] الوقوف على الحقائق لا يكون إلا بشدة البحث، وشدة البحث لا تكون الا بكثرة المطالعة لجميع الآراء والأقوال والنظر في طبائع الأشياء وسماع حجة كل محتج والنظر فيها والتفتيش، والإشراف على الديانات والنحل والمذاهب والاختيارات واختلاف الناس وقراءة كتبهم...ولا بد لطالب الحقائق من الاطلاع على القرآن ومعانيه ورواية ألفاظه وأحكامه وحديث النبي صلى الله عليه وسلم وسيره الجامعة لجميع الفضائل المحمودة في الدنيا والموصلة إلى الآخرة. ولا بد مع ذلك من مطالعة الأخبار القديمة والحديثة [...] والوقوف على اللغة التي تقرأ الكتب المترجمة بها والتحري»[7]

فقد عرف ابن حزم بالبحث المستفيض والاطلاع الواسع المباشر على مصادر مناظريه وعقائدهم، بل معاشرتهم عن كثب، حيث اعتمد على أخباره كثيرون من أهل العلم، فها هو المؤرخ الكبير ابن خلدون ذكر في غير ما موضع أن روايات ابن حزم هي الأصح والأوثق عنده[8]

فقد تعددت الروافد التي استمد منها ابن حزم ثقافته ومعرفته، منها مصادر عامة غير مباشرة، ظهرت بصماتها جلية في فكره، ومصادر مباشرة وهي تلك المصادر التي لجأ إليها ابن حزم للكتابة في التاريخ والحضارة، ولمناظرة خصومه. وقد تنوعت بحسب موضوع البحث.

وقد اكتفى ابن حزم -على غرار أكثر المؤرخين الأوائل-بالإشارة العابرة العامة إلى المصادر المكتوبة التي اعتمد عليها وأرجح القول فيها أن معظمها مخطوط، وأما المصادر الحية أي المقابلة الشفهية، فقد حرص على ذكرها وذكر سلسلة روايتها عن المشايخ والمحاورين والتواتر، وكذا المعاصرة الشخصية للأحداث.

وفي تراث ابن حزم يبرز كمصدر من مصادر المعرفة الخبر الشائع الذي يقترب من حد التواتر، والرواية التي تأتي من طريق أمين، والكتاب الذي يصله من ثقة. ونجد أيضا الرؤية والمشاهدة، ولا شك في أن هذا المصدر من أوثق المصادر.

إن لمنهج البحث الذي انتهجه ابن حزم أهمية بالغة، حيث يعد أسلوبا يطبق على مادة أي موضوع للكشف عن الحقيقة. يجمع هذا المنهج بين مدرسة المحدثين في توثيق الخبر، وحجة العقل في فهم النصوص، وكذا بين المنهج العلمي الإحصائي الذي يأخذ بأسلوب التحليل العقلي والنقد الداخلي ورصد الظواهر وتجميعا، ونتيجة لاعتماد ابن حزم لهذا المنهج تحقق له قدر كبير من الثقة في نتائج دراساته.

وإن المتأمل في نقد ابن حزم للكثير من القصص الديني الذي ورد في التوراة والأناجيل يلاحظ أنه كان يحكم عقله في كل رواية من الروايات الواردة فيها، بل الحكم بقبولها أو ردها، وجعل بعضها أقرب إلى الخرافة منها إلى شيء آخر، وما أورده في نقد قصص التوراة عن لوط[9] وإسحاق[10] من أوضح الأدلة على ذلك.

وللقرآن الكريم تأثير خاص في فكر ابن حزم، حيث اعتمد عليه في نقده التاريخي لما ورد في التوراة والإنجيل مما يدخل في باب مقارنة الأديان. كما كانت السنة والسيرة النبوية مصدر الاحتكام فيما يتعلق بالفترات والأشخاص الذين أرخ القرآن الكريم لهم أو أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم.

وقد انضم إلى هذه الروافد، كتب الملل الأخرى وكتب الفرق الكلامية، ونجد كتاب الفصل حافلا بالمنقول من هذه المصادر، وبنقدها التاريخي وتحليل نصوصها.[11]

وقد استمد ابن حزم كثيرا من كتب الأدب لتأريخه الحياة الاجتماعية الأندلسية في عصره. وبدهي أن مثل هذا النهج الشاق حري بأن يمنح صاحبه قدرا من الثقة تجعله يصل إلى مرحلة الجزم والقطع فيما يصدره من أحكام.

3- نصوص من التلمود والتوراة حول الغريب:

«جاء في التلمود أن قتل غير اليهودي لا يعتبر جريمة عند اليهود بلفعل يرضي الله. وجاء أيضا: "اقتل الصالح من غير الإسرائيليين ومحرم على اليهودي أن ينجي أحدا من باقي الامم من هلاك، او يخرجه من حفرة يقع فيها، لأنه بذلك يكون قد حفظ حياة أحد الوثنيين".

وجاء في موضع آخر: "من العدل أن يقتل اليهودي بيده كل كافر لأن من يسفك دم الكافر كمن يقدم قربانا الى الله"، وجاء أيضا "أن من يقتل مسيحيا أو أجنبيا أو وثنيا يكافأ بالخلود في الفردوس والجلوس هناك"، أما من قتل يهوديا فكأنه قتل الناس أجمعين، ومن تسبب بخلاص يهودي فكأنه خلص الدنيا بأسرها"» .

هذا غيض من فيض، ونموذج لما ينتشر في المراجع والمواقع الإلكترونية العربية حول موقف اليهود من الأغيار أو ما يصطلح عليه ب الكوييم.[12]

حيث ترد مثل هذه النصوص إما غير موثقة جملة وتفصيلا، وإما منقولة عن أحد المراجع العربية التي اهتمت بالفكر اليهودي ودراسة علاقة العداء الأزلية بين اليهودي وغيره.

ولعل من الصواب عند دراسة هذا الموضوع الرجوع إلى ما ورد في التلمود بعينه، بنظرة استقرائية تحليلية نقدية تؤصل لهذا التصور الذي لا محالة له أثره على علاقة اليهودي بغيره على كافة الأصعدة وخصوصا في يومنا هذا.

وإذا نظرنا نظرة متفحصة في التلمود البابلي ترجمته العربية[13]، نجد نصوصا متناثرة في كل من المشنا(أي المتن) والجمارا(أي الشرح المذيل للمتن)، تؤطر لموقف اليهود من الأغيار، الكوييم، نصفها بالمتناقضة أحيانا، فتارة نجد التعاليم

التلمودية تأمر بتجنب ما له صلة بالأجنبي في ما يخص العبادات لكونه نجسا، وتارة تأمر التعاليم نفسها بالإحسان إليه ورحمته ومشاركته الأعياد وعددا من الأحكام.

ويُطلِق التلمود على غير اليهودي عدة تسميات، ويعتبر "الوثني" هو المخالف الأكثر ذِكرا فيه، حيث جاء تحوله أغلب الأحكام التلمودية المعنية بتقنين العلاقة بين اليهودي وغيره، كما وردت أحكام عديدة حول الغريب الوافد على أرضهم.

فقد ورد في البرايتا[14] ما نصه:«القاعدة رقم 1: "ولايجب أن تظلم غريبا[جير]،ولايجب أن تقمعه". لايجب أن تظلمه" [...] "لقد كنت مغرباء في أرض مصر؟" من هنا اعتاد الحاخام ناثان أن يقول: لاتوبّخ جارك على العيب الذي لديك»[15] .

وهناك نصوص توراتية تعزز ما ذكرناه ومنها: «[9]وَلاَ تُضَايِقِ الْغَرِيبَ فَإِنَّكُمْ عَارِفُونَ نَفْسَ الْغَرِيبِ، لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ.»[16]

هناك مفهومان للآخر لدى أحبار اليهود:

أحدهما على المستوى الداخلي: وهو الآخر المنتمي للديانة ذاتها التي يعتقدها الحاخامات، وإن وجدت خلافات عقدية بينهم قد تجعل بعض الحاخامات المتشددين يخرجون مخالفيهم من ملتهم، وهو ما ينطبق على فرقة السامريين لخلافهم مع الحاخامات الربانيين أو الفريسيين واضعي الشريعة الشفوية.

والمفهوم الثاني للآخر: يتمثل في غير اليهودي بصفة عامة مما يخرجه من نطاق الأحكام الواجبة على اليهود، تلك الأحكام التي تميز اليهود عن غيرهم، وذلك لخصوصية علاقتهم بالرب كما يعتقدون.

من هذه الأمثلة تتضح مدى أهمية الرجوع للمصادر الأصيلة التي تؤسس عقيدة الآخر و التي بدورها تنعكس على سلوكه، وتكمن هذه الأهمية في تذليل العقبات وتمهيد السبل إلى قبول الاختلاف والاعتراف بالآخر المخالف قصد محاورته، فالاختلاف بشتى أنواعه باق إلى قيام الساعة، والحكم فيه يومئذ لله، والتعامل مع بقائه لا يكون بإلغائه ولا بتجاهله، بل بالتعرف إليه والتعامل معه، باعتباره سنة دائمة من سنن الله في الكون.

خاتمة

إن الإنسان عدو ما يجهل، لذلك أضحت المعرفة سبيلا لا محيد عنه على الرغم من كونها تتطلب جهدا ومالا وهمة عالية، والمعرفة بالآخر تسبقها معرفة محكمة بالذات أو الأنا, وذلك بخلق التوازن الذي يقتضي إنصاف الآخر مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾17

في هذه الآية يبين الحق جل وعلا أمره لعباده المؤمنين بأن يكونوا قوامين بالقسط قائمين بالعدل، وأن يكون عدلهم مع جميع الخلق، الموافقين منهم والمخالفين، وألا يحملهم بغضهم للمخالفين بأن لا يعدلوا معهم، فبالعدل قامت السماوات والأرض، وهو أقرب الطرق الموصلة للتقوى، التي تتنافس عليها شعوب الأرض المؤمنة بأن أكرمنا عند الله هو أتقانا.

التهميش:

[1]- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ-1979م، م4 ص281

[2]- أندريه لالاند، الموسوعة الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، بيروت، باريس، منشورات عويدات.(د.ت.) (connaissence)

[3]- حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، القاهرة- مصر، الدار الفنية، 1990م، ص24

[4]- سورة الحجرات، آية 13

[5]- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، تحقيق ودراسة مجدي فتحي السيد، دار الصحابة، ط1، 1416هـ، 1995م، مصر. ج1/ 315

[6]-مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: نظر بن محمد الفاريابي، دار طيبة، ط1، 1427هـ-2006م ، باب الفتن وأشراط الساعة، ح 2898.

[7]- ابن حزم الأندلسي، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية.(د.ت.) ص118

[8]- ابن صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق: لويس شيخو، بيروت - لبنان، ط1، 1330هـ، وينظر: عبد الرحمان بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر(تاريخ ابن خلدون)، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية. (د.ت.) م5 ص115

[9]- ابن حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، بيروت-لبنان، دار الجيل.(د.ت.) ، م1ص133

[10]- المرجع السابق م1 ص137

[11]- جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مصر، مطبعة الهلال، 1992م. م3ص99

[12]-تعني "شعب "أو "قوم". وقد تطورت هذه اللفظة مع مرور الزمن، فكانت الكلمة تنطبق في بادئ الأمر على اليهود وغير اليهود، ولكنها بعد ذلك استخدمت للإشارة إلى الأمم غير اليهودية دون سواها.

[13]- تتكون نسخة الترجمة العربية للتلمود البابلي - الصادرة عن مركز دراسات الشرق الأوسط - الطبعة الأولى، من عشرين مجلدا.

[14]- وهي تعني "الخارجي" ويقصد بها أجزاء المشنا الخارجية التي رفض الحبر "يهودا هاناسي" أن تضم للمشنا

[15]- ملحقات التلمود، البرايتا، المجلد 20 من التلمود البابلي، الجزء الثاني، مسختوت قطنوت(الأبواب الصغيرة) القسم الباب الأول: كْيريم (المتهودون) الفصل الرابع ص395

[16]- خروج 32- 12

[17]- سورة المائدة آية 8

قائمة المصادر والمراجع:

1- **القرآن الكريم** برواية ورش.

2- **الكتاب المقدس**، الترجمة الأصيلة 2008م.
3- **التلمود البابلي**، الترجمة العربية، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان- الأردن، ط1، 2011م.
4- ابن حزم الأندلسي، **التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية**، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية.(د.ت.)
5- ابن حزم الأندلسي، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، بيروت-لبنان، دار الجيل.(د.ت.)
6- ابن صاعد الأندلسي، **طبقات الأمم**، تحقيق: لويس شيخو، بيروت - لبنان، ط1، 1330هـ
7- ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ-1979م
8- أندريه لالاند، **الموسوعة الفلسفية**، تعريب: خليل أحمد خليل، بيروت، باريس، منشورات عويدات.(د.ت.)
9- جرجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، مصر، مطبعة الهلال، 1992م.
10- حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، القاهرة- مصر، الدار الفنية، 1990م
11- عبد الرحمان بن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر(تاريخ ابن خلدون)**، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية. (د.ت.)
12- عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، دار الكتاب العربي، 1410هـ-1990م.
13- مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، تحقيق: نظر بن محمد الفاريابي، دار طيبة، ط1، 1427هـ-2006م.